



الفصل الأول

الأديان والصفحة الأولى
من السجل الإنساني

obeyikan.com

الأديان والصفحة الأولى من السجل الإنساني

نفتح سجل التاريخ الإنساني، عند مرحلة الأسر الإنسانية الأولى التي آوت إلى الكهوف والمغارات، وعاشت حياة التوحش مثل غيرها من أسر الحيوانات الأخرى.

وحين نفتح السجل الإنساني عند هذه الصفحة، فإننا نتجاوز «النشأة الأولى» للإنسان وما تثيره من جدل عقيم بين لاهوتيين يؤمنون بإله شخصي، بل جسدي للكون، خلق الإنسان خلقا مستقلا (آدم - الجنة)، وهؤلاء يتصورون الله وكأنه صانع دُمى.. وتطوريين علميين يؤمنون «بالتطور الخالق»^(١)، وهؤلاء يرون القوة المنشئة في صورة قانون أبدى سرمدى ينظم الكون كله، وينظم علاقات الحركة والنمو فيه... اللاهوتيون يفتتحون تاريخ الكون بقولهم: «في البدء خلق الله...» والعلميون يبدأون تاريخ الكون بقولهم: «في البدء كانت إرادة الحياة...».

اللاهوتيون يريحون أنفسهم بالوقوف عند «الله» علة العلل، حيث انبثق فجأة - بذاته - من العدم، فخلق الكون وخلق الأشياء، وخلق الإنسان.. والعلميون يقفون عند مبدأ «إرادة الحياة»، ويرون أنه حيثما توجد شروط الحياة - كما نعرفها - تنبثق الحياة، ولا قيمة للبحث فيما وراء ذلك، حيث يهتم العلم بالظواهر والفيزيقا.

إذن، فالظاهرة الإنسانية تبدأ بأسر متوحشة تقيم في مناطق الحشائش

(١) «التطور الخالق» عنوان كتاب لهنرى برجسون.

(السائقنا) ووديان الأنهار منذ بضع مئات من آلاف السنين.. والاعتقاد الغالب، أن تلك النشأة الأولى للأسر الإنسانية كانت في المناطق الدافئة حول حوض البحر المتوسط، ثم ما لبثت أن زحفت في كل اتجاه.

ويلعب «الشعور الجنسي الغريزي» دوره في تنظيم تلك الأسر، وإنشاء أسر جديدة. إن تأثير العامل الجنسي على الأسر الإنسانية الأولى، يعادل نفس تأثيره على الحيوانات الأخرى: فالأسرة عادة تتكون من ذكر قوى سيطر على أنثى، أو اجتذبت أنثى، فصار لهما صغار.. ويكبر الصغار، وينمو معهم شعورهم الجنسي، ويتجه الأشبال من الصغار بشعورهم الجنسي تجاه الأم باعتبارها أنثى ناضجة (أساس عقدة أوديب) وإذ يلاحظ الأب ذلك يثور ويتلاشى عنده شعور الأبوة، أمام شعوره الجنسي، فيطرد الأشبال.. وتتجه الإناث الصغيرات بشعورهم الجنسي تجاه الذكر الكبير أو الأب (جذر عقدة إيكتر)، وتثور الأنثى الكبيرة، ويضعف نداء الأمومة، ويطغى الشعور الجنسي، فتطرد الأم الكبيرة الإناث الصغار.. ويحوم الصغار ذكورا وإناثا حول الأسرة الأولى، يدفعهم حنين غامض إلى الكهف القديم وحماية الأم والأب.. وينتبه الصغار - بداعي الجنس - بعضهم لبعض، فتتكون أسر جديدة في الجيل الثاني.. وتتعاقب الأجيال وتتسع الدوائر.

وتشعر هذه الأسر - في صراعها من أجل البقاء - ومن خلال التنافر والتجاذب، بالتشابه والتماثل، وأحيانا تشعر بقيمة التعاون في سبيل ذرة خطر ما، أو الحصول على منفعة.. فالبحث عن صيد أو فريسة كبرى أمر قد يحتاج إلى تعاون عدة أسر، ودفع خطر وحش عارم قد يحتاج - أيضا - إلى تعاون... وتتعدل العلاقات وتبدأ بذور التقاليد والأعراف وينمو الشعور

الجمعى أو عقلية القطيع، طالما كان ذلك الشعور الجمعى مفيدا فى الصراع من أجل البقاء.

فى الثدييات، تقوم الأم بالدور الأكبر فى رعاية الصغار، حيث إنَّ الثدي من نصيب الأمومة.. وأطفال الإنسان يقضون فترة رضاعة طويلة، تعقبها طفولة واهنة، تعتمد على الأم أيضا، وربما على الأب معها.. وأغلب الظن أن أطفال الإنسان كانت نسبة كبيرة منهم تموت فى الفترة التى تعقب الرضاعة ومع بداية تناول الصيد والثمار... وننقل الأسطورة المصرية عن اكتشاف القمح، إذ هى تسدّ فراغا فى قصة تقدم الإنسان^(١) «أم مصرية على ضفاف النيل فى الزمن السحيق شعرت بضيق بسبب بكاء صغيرها، الذى ربما كان يبكى من آلام فى معدته بسبب خشونة الطعام أو دسامته، ولعل تلك الأم انتبهت لأم من عالم الطير تنزل إلى الحشائش فتلقط حبا من نبات معين، ثم تطير لتطعم به صغارها منقاراً لمنقار.. فقلدها الأم المصرية، فمضغت تلك البذور وأطعمت بها صغيرها فمألفم كمنقار لمنقار.. هداً الطفل، ضحك الطفل.. ضحكت تلك الأم.. وجمعت بذورا وضعتها فى الكهف.. نبت بعضها.. حرصت الأم على ذلك النبات وأخذت ترعاه وتحفظ ببذوره، ثم زرعت بذوره.. اشتركت الجماعة كلها فى الزراعة فنشأت الحضارة الزراعية».. وهذا لا يمنع من تصوّر أبسط، حيث كان الإنسان الأول يعتمد على الصيد والالتقاط، فلما تكاثرت الأعداد، لم يعد الصيد والالتقاط كافيا، فتطوّرت فكرة التقاط البذور والنباتات المختلفة، إلى

(١) عن «الجبثانا» أسفار التكوين المصرية، جمع الأصل اللاهوتى الديموطيقى مانيتون السمودى برواية الأب أبيب النقادى، الصياغة العربية والمراجعة التاريخية على الألفى.

الزراعة والاستنبات، وهكذا ظهرت الحضارات الزراعية فى وديان الأنهار . وترتبط الزراعة بالنهر، وتحتاج الزراعة القائمة على الأنهار، إلى التعاون فى سبيل شقّ القنوات والترع والمصارف، أو فى سبيل التصدّي لقسوة النهر وفيضانه، فتنشأ وتنمو روح الجماعة .. والنهر - فضلا عن ذلك - وسيلة مواصلات ورمز توحيدى للجماعة، خصوصا إذا صار مقدساً بإصرار بعض المهيمين على إضفاء طابع كهنوتى عليه .. ولم تكن الأمم القديمة تربط بين النهر ومصدر الماء الطبيعى من المطر أو ذوبان الثلوج، حتى أننا نجد فى بعض الكتابات، بعد الإسلام، وإلى وقت قريب، ما يوحي بأن البعض كان يفسّر ماء النيل بأنه يأتى من بوابة من بوابات الجنة .. أو من نهر فى الجنة .. وطالما كانت الأمم القديمة لا تربط بين النهر ومائه، فإن ذلك كان يسهّل الأساطير الدينية التى تُنسج عن النهر والآلهة المسيطرة على الوادى .. تلك الأساطير جعلت النهر مقدساً أو جعلته إلهاً .. وترتب على ذلك مزيد من التوحيد بين الجماعات المقيمة حول ذلك النهر .

ولم تعد «الإشارات» تكفى للإنسان .. فقد ترك مناطق الحشائش التى تصحرت واتجه إلى الأنهار حيث الغابات ... ونشأت الحاجة إلى اللغة التى ساعد عليها الجهاز الصوتى المرِن للإنسان .. وتحدث الإنسان باللغة مع زملائه المختلفين وراء الأشجار، أو مع الذين لا يراهم بسبب الظلام .. وتطور العقل الإنسانى معتمدا على اللغة كوسيلة للتفكير .. وتقدّم الإنسان .. وصار للجماعة العرقية تجمّع وشعور غريزى بالجماعة .. ونما هذا الشعور فظهرت بدايات الدين القبلى المعروفة «بالتوتم» كرمز إشارى للجماعة (فى صورة شجرة يرتكن عليها الجدّ، أو صخرة، أو قبر أحد الأجداد الذين دُفِنوا

فى الجوار.. وبدهى أن الجماعة تذوب فى التوتم، إذ هو رمز حياتها وخلودها (كالملكة فى الحشرات الاجتماعية كالنحل).

يرى علماء الاجتماع الدينى^(١)، وعلم النفس الاجتماعى أن البشر قبل التدوين وفى بدايات التدوين، لم يكونوا متمايزين بأسماء تخص كل فرد منهم (مثلهم كمثل بقية أنواع الحيوان)، بل كان تمايزهم مقتصرًا على الموقع فى الجماعة أو العشيرة: فهذا رأس الجماعة، وهذا خادم الوثن أو التوتم، وبقية الأفراد نكرات، وهم فى هذا، لا يختلفون عن التنظيمات الغريزية فى عالم النحل.. فهناك الملكة والذكور والشغالة، وكل مُميّز بوضعه، وكذلك الأفراد من البشر فى عصور التوحش لاجتياجهم إلى الأسماء، فهم قطع يذوب فى توتم واحد.

ثم تعقدت حياة الإنسان، واحتاجت الجماعة إلى شئٍ من التمايز بين أفرادها، بحكم بدايات التنظيم، ولو فى عمليات الصيد والحرب وخدمة التوتم أو ما شابه ذلك.. فظهرت بدايات التعريف والتمييز للأفراد (وهى مناسبة للنداء من مكان بعيد).. فهذا ذو الشعر الأحمر، وذلك ذو الأذن المقطوعة، وذاك ذو الإصبع (إن كانت له إصبع زائدة).. وهكذا...

☆☆☆☆☆

(١) روجيه باستيد «نشأة الجماعات الإنسانية».

ظهور رجل اللاهوت ورجل الإدارة

وصعد الإنسان في سلم التقدم، وتغيّرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وطرق الحياة.. وبدأ الإنسان يتخفف من سلطان الجماعة والتوتم الرمزي لها.. وبدأ الشر يدركون أن ذا الشعر الأحمر، وذا الرأس الأصلع، لا يختلفون فقط في الفرق الواضح في رأس كلّ منهم، بل يختلفون - أيضا - في صفات «أخلاقية» تميّز كل واحد منهم. وزادت «الفردية» والشعور بها فظهرت الأسماء، وإن كان ظهورها في البداية انسلاخا من الأوصاف: منصور. طويل. قصير. كثير الحيل.. الخ...

كانت التوتمية تعبيرا عن القبليّة (والتوتمية تذكرنا دائما بملكة النحل توتم الخلية).. ثم توحدت القبائل في شعب (Nation) وظهر «الدين» معبرا عن «شعب» معين.. وقصص الأديان الراضة للتوتم والوثن والصنم تؤيد ذلك.. وكلمة شعب العربية لها صلة بالتشعيب والنمو بالميلاد من أصل واحد.. وهي - بهذا تكون مساوية للجذر اللاتيني Nation المبنى على المولد والمنشأ.

وحين اكتشف الأمريكتين وأستراليا وجزر المحيط الهادى وجد علماء الإنسان «الأنثروبولوجى» مجموعات من البشر يعيشون في تجمعات، بعضها أقرب إلى المراحل الدنيا من التوتمية، وبعضها يسمو عن ذلك ويقترّب من الدين، وتبيّن للدارسين أن القبائل الصغرى المتناحرة، كانت أقرب إلى التوتم كموحد غريزى أو رمز إشارى للجماعة (الصخرة التى كان يرتكن إليها الحد، الشجرة التى كانوا يتجمعون تحتها.. الخ)، أما القبائل الكبرى، أو

البطون والشعوب، فكانت أقرب إلى فكرة العقيدة القومية أو الدين. (تحولّ الرمز المادى إلى رمز معنوى ممتثل فى دعوة ادعاها نبيّ أو قائد قومى). وتتفاوت الفروق بين القوآد القوميين أو الزعامات والأنبياء.. أحيانا يكون الزعيم لبقا قادراً على الإيهام وصياغة الأحلام والآمال، فتحولّه الجماعة إلى نبيّ، ويتحولّ هو معها.. وأحيانا يكون عسكرياً ماهراً وإدارياً محنكاً، فتحولّه الجماعة إلى ملك، ويتحولّ هو معها.. وأحيانا يجمع الزعيم بين الجانب الروحى الإيهامى والجانب التنظيمى العسكرى، فيصبح نبيّاً جامعاً بين الإدارة والحرب والإيهام الروحى..... ودراسات أوربية كثيرة، فى علم النفس الاجتماعى، وعلم الاجتماع الدينى^(١) تعتبر نبيّ الإسلام قيادة تجمع بين الناحية الروحية والإدارية والحربية.

وأحيانا تتفوق زعامة ما فى الناحية الروحية، وزعامة أخرى فى الناحية السياسية والعسكرية. ودراسات أوربية كثيرة ترى أن النبيّ العبرنى موسى، شاركه أخوه هارون فى الناحية الروحية والبلاغة (وأشار العهد القديم والقرآن إلى ذلك).. كذلك كان كلا من داود وابنه سليمان مجرد ملكين (كما جاء فى العهد القديم، بينما يرى القرآن أنهما نبيان).. ورد فى العهد القديم^(٢) قول داود: أركبوا سليمان ابنى على البغلة التى لى، وانزلوا به إلى جيحون، وليمسحهُ هناك صادق الكاهن وناثان النبيّ ملكاً على إسرائيل، واضربوا بالبوق، وقولوا ليحيى الملك سليمان».

(١) روجيه باستيد: نشأة الجماعات الإنسانية.

(٢) الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول.

نؤكد - من جديد - ذلك المقياس لرقى الجماعات : أسفله منغمس في الحيوانية وتعبر عنه الحشرات الاجتماعية كالنحل، فالملكة تكاد تكون رمزاً توتيميا للجماعة، وأوله في الجماعات الإنسانية الجماعة التوتمية، ثم الجماعات «فوق التوتمية» التي تعتمد على أساطير تجمع ما بين التوتم وبدايات الدين القومي، ثم تأتي الجماعة القومية ومعها الدين القومي (أبدعته الجماعة القومية أو استعارته من أمة أكثر تحضراً) .. ثم تسمو الجماعة وتعتمد على الإدارة المدنية، وفكرة المنفعة، وينحصر الدين في الاجابة عن المغيبات الروحية المتصلة بنظرية المعرفة.

☆☆☆☆☆